أقال الربان (دَبْ)؟ كانت المدينة قائمة في دلتا نهر «السند» على فرع أتربته شيئاً فشيئاً الأوحال المجروفة من أعلى الجبال. وأصبحت السفن القادرة على بلوغها أندر فأندر عاماً بعد عام. وذات صباح استيقظ الثغر وقد غرق وسط الأتربة. وعندها هجره الناس إلى مشاهد أخرى في الجوار مثل (تاتّا) و (سِنْدي) و (لَهْري)، ومؤخّراً (كراتشي).

ماذا بقي من (دَبْ)؟ ما الذي بقي من قصورها ومعابدها فوق التلال ومبناها القرميدي اللون الخاص بالمكوس، ذلك البناء المحدَّد الأعلى الذي كان البحّارة يرقبونه من بعيد وكأنّه منارة؟ لقد كان بعض المسافرين لا يزالون يشيرون إلى وجوده حتى القرن السابع عشر. ثمّ تاه كل شيء. فلا أدنى أثر للمكان المعيَّن، ولا ظلّ لطلل. ولا من أحدٍ يعلم. وفي اللحظة التي يُخَطّ فيها هذا السطر لا يزال بعض علماء الآثار ينقّبون في مصابّ «السند» عن أثر لأثر.

لم يكن في مقدور معاصري «ماني» تجاهل (دَبْ). ولا سيّما أكثرهم مغامرة. فقد كان جَرْس هذا الاسم يرنّ في آذانهم رنينَ نداء مُختَنِق ويولِّد في نفوسهم الرغبة في الترحال. وفي ذلك الوقت كان الناس يتعرفّون على العالم من خلال همساته، ويُراد بالحدْس والتخمين، وكانت خرائط نصف الكرة شديدة التشابك والاختلاط، والجُزُر تنتفخ بنفحة الحكايات العجيبة فتتحوّل إلى قارّات، وتتحوّل البرزاخ إلى محيطات تنبثق منها مسوخ ووحوش كان يرسمها الجغرافيون. فوق الجبل المُشرِف على (دَبْ) كان كاتب حريص قد خطّ وكأنّه يُعيِّن منبع نهر: «قد تكون العقارب وُلِدت في هذا الموضع».

كان الناس يتوقّعون في كل مرحلة من مراحل الرحلة أن يلتقوا الطاعون والوحوش والمجاعة والحرب والنهّابين، وكذلك العمالقة الأسطوريين ذوي العين الواحدة وجميع أنواع العجائب، بيد أنهم لم يكونوا يعدِلون لهذه الأسباب عن الرحيل. وكان الموت شوكة قارصة مألوفة. وكانت المغامرة تُعاش على هذا النحو. وكان يُقال وداعاً ويرحل الراحلون. بلا تاريخ ولا ضمان بالعودة. وعندما كان المرء يتحلّى بالإقدام وينعم بالحظّ والرياح المؤاتية فإنه كان يبلغ (دَبْ).